البابُ الثاني

الحياءُ والحياة

الفصل الأول : الحياءُ في حياةِ الإنسان

الفصل الثاني : أنواع الحياء وأقسامه عند العلماء

الفصل الأول

الحياءُ في حياة الإنسان

ـ لاشكَّ بأنَّ للخير معنىً كامناً ، يُعرفُ بصفاتٍ تدلُّ عليه ، وسمةُ الخيرِ : الدَّعةُ والحياء ، وكفىٰ بالحياءِ خيراً أنْ يكونَ علىٰ الخيرِ دليلاً .

ـ والحياءُ مادَّةُ الخيرِ في حياةِ الإنسان ، وبه تظهر الفضائل ، بل بهِ تُستَرُ العيوب ، قالَ بعضُ الحكماء : مَنْ كَسَاهُ الحياءُ ثوبَه ، لم يرَ الناسُ عيبَه . وقال بعضُ البلغاء : حياةُ الوجهِ بحيائه ، كما أن حياةَ الغرسِ بمائه .

ـ ولأنَّ الحياةَ المستقرّة تحتاجُ إلىٰ الحياء ، لذا فالحياءُ يشتملُ علىٰ مجانبةِ المكروهِ منَ الخصال ، والمذموم منَ الفعال ؛ أما مَنْ سُلِبَ مادة الحياء ، فليس له رادعٌ عن

ارتكابِ قبيحٍ ، ولا زاجرٌ عنْ محظورٍ ، فهو يُقدِمُ علىٰ ما يشاء ، ويأتي ما يهوىٰ ، ولهذا قال بعض العلماء البلغاء : يا عجباً ، كيف لا تستحي من كثرة ما لا تستحي! . .

ـ فالحياءُ عنوانُ الحياةِ ، وعنوانُ الكرامِ وأهل الخير والفضل ، ولقد أصابَ الشاعرُ إذ قال :

إذا قلَّ ماءُ الوجهِ قلَّ حياؤُه ولا خيرَ في وجهٍ إذا قلَّ ماؤهُ
حياءَك فاحفظه عليك وإنَّما يدلُّ علىٰ فعلِ الكريم حياؤه

ـ وعلىٰ هذا فالحياءُ مفتاحُ كلِّ فضيلةٍ ، وإكسيرُ الحياة الرّغيدةِ في ظلالِ الاستقامةِ ، وإذا طارَ الحياءُ من الإنسانِ ، دعاهُ ذلك إلىٰ أنْ يعملَ ما يشاء ، لا يردعه عنه رادع ، لذا فليستحي المرء ، فإنَّ الحياءَ يردعه ، ويهديه إلىٰ منابعِ الخيرِ ، ومنابت الفضل .

ـ وتكونُ الحياةُ طيّبة المعنىٰ والمغنىٰ إذا استطاع المرءُ أنْ يزنَ أموره بميزان الحياء ، ومقياس الاستحياء ، وجاءت هذه المعاني ممثلة في قول أحدِ فضلاء العلماء حيث قال : إذا عرضتَ عليكَ أفعالكَ التي هممتَ بفعلها ، فلم تستحي منها

لحسنها ، فاصنعْ ماشئتَ منها[1] .

ـ ونلحظُ بعينِ البصيرة أنَّ هذا المرءَ قدْ جعلَ الحياءَ حَكَماً علىٰ أفعاله ؛ ومَنْ سار في هذا الدّربَ الوضيءَ حَسُنتْ علانيتهُ إذ هي مِثْلُ سِرِّه ، فَمَنْ كانَ سره وعلانيته سواء ، فهو منْ أهلِ الحياء ، وخاصةً إذا كانتْ أعمالُه متوجةً بالإيمانِ ، منداةً برحيقه[2] .

---

(١) أدب الدنيا والدين (ص ٣٩٢) .

(٢) قد يقولُ قائل : إنَّ ظاهرةَ الحياءِ موجودة عندَ غيرِ المؤمنين!! والحقيقة ؛ فظاهرةُ الحياءِ مرتبطةٌ بما يقولهُ النَّاس عنه : هذا عيبٌ أو نقصٌ ، لا ما يقوله الدِّين .

إنَّ المؤمن إذا خلا بنفسه ، استحيا من ربه أنْ يفعل النقائص ، أمّا غيرُ المؤمنِ فإنّه يجدُ شيئاً من الشعورِ بحياءِ من هذا القبيل ، وكلُّ ما في الأمر أنّه يحرص علىٰ أن يكون كاملاً في أعين النّاس ، وليس له عنايةٌ بالكمالِ الحقيقي الذي ترتبطُ مفاهيمه بالإيمان .

ومن الجدير بالذِّكر أنَّ بعضَ هؤلاء يقولون : إنَّ الحياءَ ضَعْفٌ في النّفس ، وما علىٰ الإنسان إلا أن يكونَ جريئاً في تلبية دوافعه مهما كان شأنها ، وعندها يكون شجاعاً حقّاً ، أمّا الحياءُ فإنَّه ضعفٌ وأي ضعف!!!

ـ والمرء العاقلُ الذي يودُّ أنْ تكونَ أمورُه منتظمةً يراقبُ نفسه ، فتستوي حياته ، ويستقيم سلوكه ، وخصوصاً عندما يستحضرُ قولَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء : ١] . وقولَ اللهِ أيضاً : ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر : ١٩] . وقوله : ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾ [العلق : ١٤] .

ـ فالإنسانُ المؤمنُ لا يستحي منَ الكمالِ إذا هو ظهرَ به ، واتّصفَ بصفاتهِ ، وإنّما يستحيي مما فيه نقص ، أو مما يخشىٰ أنْ يكونَ فيهِ نَقْص ، لذلك فالحياءُ منْ علو النَّفس ، ومنْ كمال حياةِ الإنسان ، وذلك لحبها للكمال ، وحرصها علىٰ أنْ تتصف بصفاته ، وتظهر أمام النَّاس بالمظهر التي تدلُّ عليه .

ـ وقد نلاحظُ بعضَ النّاسِ منَ الذينَ يغلبُ عليهم الحياءُ ، يستحيون من أمور لا نقص فيها ، وليس منْ شأنها أن يُستحيا منها ، ولكنَّ ذلك يرجعُ إلىٰ سوءِ فَهمِهم لبعضِ الأمور ، أو إلىٰ عدمِ تقديرهم للأمور حقَّ قدرها ، إذ المسؤولُ عنْ ظاهرةِ الحياء في غيرِ محلّه هو مفاهيم الفِكْر الخاطئة ، ولكن حين

يجري تصحيح هذه المفاهيم لا يستحيي ذو الحياء مما لا يُستحيا منه ، بل يواجه النّاس بكلّ جرأة وشجاعة ، ويعيش حياتَه باتزانٍ وهدوء .

ـ ومِنْ هذا وذاك أبانَ رسولُ اللهِ ﷺ أنَّ الحياءَ منَ الإيمانِ ، وأنَّهُ خيرٌ كلّه ، وأنَّه لا يأتي إلا بخير .

ـ ومن المشاهد العامّة التي تفيدُ الإنسانَ في حياته ، ما نجد أنَّ خُلقَ الحياءِ يمنَعُ صاحبه من ارتكاب ما يغضُّ من شخصيته ، وما يسلكه في طريق المنكرات ، أمّا حينما ينعدمُ خلق الحياء ، فإنَّ الإنسانَ يفعلُ في حياته ما يشاءُ ، فذهابُ خلقِ الحياء يجعلُ الإنسان وقحاً لا يبالي أوقعَ علىٰ الفواحِش ، أم وقعتْ عليه ، ولا يكترثُ بما يقوله الناس فيه ، وما يعيبونه به .

ـ أما الحياءُ فيحجزُ المرءَ عن الدَّنس ، ويجعله يتستَّرُ بثوب الحياء إذا ما كبا وسقط في شيءٍ من أوحاله ، ويجعله بعيداً عن فحش القول والبذاءة ، ويعيش في نعيم هذا الأدب العظيم ، أدب الحياة ، الذي هو مادة الحياة وروحها .

الفصل الثاني

أنواع الحياءِ وأقسامه عند العُلماء

تعرّضَ العلماءُ والأدباءُ والفضلاء والفقهاء والمحدّثون إلىٰ أنواعِ الحياءِ ، وكلُّهم أدلىٰ دلوه ، ولكنَّ هناك شيئاً واحداً ينظمُ ما قالوه ، وهو الحياءُ منَ الله عَزَّ وجَلَّ ، والحياء الفطري ، وها نحنُ أولاء مرسلو القولَ في بعضِ أقوالِ الفضلاء في أنواع الحياءِ ، ورؤية كلّ واحدٍ منهم إليه من منظار العلم ، حيثُ نجدُ الحياء من خلال الناحية الزهدية ، أو الحديثية ، أو الأخلاقية ، أو الأدبية ، وما شابه ذلك .

ـ ففي كتابه النَّفيس الجميل « روضة العقلاء » جعل ابنُ حبّان البُستي الحياءَ في نوعين ، وشرحهما وفصلهما ، فقال : الحياء حياءان :

أحدُهما : استحياءُ العبدِ منَ اللهِ جلَّ وعلا عند الاهتمام بمباشرة ما حُظر عليه .

والثاني : استحياؤه من المخلوقين عند الدُّخول فيما يكرهون منَ القول والفعل معاً .

ـ والحياءان جميعاً محمودان ، إلا أنَّ أحدهما فرض ، والآخر فضل .

فلزوم الحياء عند مجانبةِ ما نهىٰ عنه فرض ، ولزوم الحياء عند مفارقة ما كره الله فضل[1] .

ـ وتعرّضَ أبو الليث السّمرقندي إلىٰ أنواع الحياء ، بعد أنْ ساقَ قلائدَ من جمانِ الأدلّة الحديثية والزّهدية فقال : الحياءُ علىٰ وجهين : حياء فيما بينكَ وبينَ النَّاس ، وحياء فيما بينكَ وبينَ اللهِ تعالىٰ .

أمّا الحياءُ الذي بينك وبينَ النَّاس : أن تغضَّ بصرك عما لا يحلّ لك .

---

(١) انظر : روضة العقلاء ونزهة الفضلاء (ص ٨٧) .

وأمّا الحياءُ الذي بينك وبين اللهِ تعالىٰ : أن تعرفَ نعمته ، فتستحي أن تعصيه[1] .

ـ واعتبر ابنُ رجب ـ رحمه الله ـ أنَّ الحياء يكون علىٰ نوعين اثنين : حياء منْ أصلِ الجبلّة ، وحياء مُكتسب ، فقال ما مفاده وملخصه : واعلم أنَّ الحياءَ نوعان :

أحدهما : ما كان خَلْقاً وجِبلّة غير مكتسب ، وهو منْ أجلِّ الأخلاق التي يمنحها اللهُ العبدَ ، ويجبله عليها ، ولهذا قال ﷺ : « الحياءُ لا يأتي إلا بخير »[2] ، فإنَّه يكفُّ عن ارتكابِ القبائح ودناءة الأخلاق ، ويحثُّ علىٰ استعمالِ مكارمِ الأخلاقِ ومعاليها ، فهو من خصالِ الإيمان بهذا الاعتبار .

الثاني : ما كانَ مكتسباً منْ معرفةِ اللهِ تعالىٰ ، ومعرفة عظمته ، وقربه من عباده واطلاعه عليهم ، وعلمه بخائنةِ

---

(١) انظر : تنبيه الغافلين (ص ٤٧٨) تحقيق يوسف علي بديوي .

(٢) أخرجه البخاري برقم (٦١١٧) ؛ ومسلم برقم (٣٧) .

الأعين وما تخفي الصُّدور ؛ فهذا من أعلىٰ خصال الإيمان ، بل هو أعلىٰ درجات الإحسان . فقد قال رسولُ الله ﷺ لرجل : « استحي من الله كما تستحي من صالح عشيرتك »[1] . وقد يتولدُ من الحياءِ الحياءُ من مطالعة نِعمهِ ورؤية التقصير في شكرها ، فإذا سُلبَ العبدُ الحياءَ المكتسب والغريزي ، لم يبقَ له ما يمنعه من ارتكاب القبيح ، والأخلاق الدّنيئة ، فصار كأنَّه لا إيمانَ له[2] .

ـ وفي « مدارجه » يُدرج ابنُ قيم الجوزية ـ رحمه الله ـ الحياءَ في عشرة أنواع ، ويأتي ببعضِ الأمثلةِ اللطيفة علىٰ كل نوع وكل قسم مما ذكره ، أما الأنواع عنده فهي : حياء جناية ، حياء تقصير ، حياء إجلال ، حياء كرم ، حياء حشمة ، حياء استصغار للنفس واحتقار لها ، حياء محبة ، حياء عبودية ، حياء شرف وعزّة ، وحياء المستحيي من نفسه[3] .

---

(١) رواه أحمد (١/ ٤٠٨) ؛ والترمذي برقم (٢٤٥٨) .
(٢) انظر : جامع العلوم والحكم (١/ ٥٠١ و ٥٠٢) .
(٣) مدارج السالكين (٢/ ٢٦١) .

ـ وها نحنُ أولاء ـ ونحن في رحاب أدب الحياء ـ نوردُ ما ذكره ابنُ قيم الجوزية ، بشيء من التصرف كي يحلوَ موضوعنا ، وكيما تتوضحَ أمامنا معالم الحياء في عالم الأخلاقِ ، وعندها نتمثّل الحياء في حياتنا قولاً وعملاً وسلوكاً .

أولاً : حَياءُ الجنايةِ :

ربما يقعُ الإنسانُ في خطأ ما عن غير قصد ، وعندها يحصلُ له الحياءُ منْ هذا القبيل ، ومن ذلك حياءُ أبي البشرية آدم ـ عليه السلام ـ لما أكل وزوجه من الشجرة ، ففرَّ هارباً في الجنّةِ ، فقال الله عَزَّ وجَلَّ له : أفراراً مني يا آدم ؟

قال آدم ـ عليه السلام ـ : لا يا رب ، بل حياء منك .

ثانياً : حياءُ التقصير :

وحياءُ التقصيرِ هذا شعورٌ تجاه العالَمين ، كحياءِ الملائكة الذين يسبحون الليل والنّهار لا يفترون ، فإذا كان يومُ القيامة قالوا لربّ العالمين : سبحانك! ما عبدناك حقّ عبادتك .

ثالثاً : حياء الإجلال :

والإجلالُ معناه هنا التعظيمُ للهِ عَزَّ وجَلَّ ، فبقدرِ معرفةِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ يكونُ حياءُ المعرفةِ ، وعلىٰ حسبِ معرفةِ العبد بربِّهِ وعلمهِ به ، يكونُ حياؤه منه . فالعبدُ متىٰ عرفَ أنَّ الله عَزَّ وجَلَّ ناظرٌ إليه ، أورثتهُ هذه المعرفةُ حياءً منه ، يجذبُه إلىٰ احتمالِ أعباءِ الطاعةِ ، مثل العبد المملوك إذا عملَ الشُّغل بين يدي سيّده ، فإنه يكون نشيطاً فيه ، ولا سيما مع إحسان سيده إليه ، ومحبته لسيّده ، بخلافِ ما إذا كان غائباً عن سيِّده ، والله عَزَّ وجَلَّ لا يغيبُ نظره عن عبدهِ .

رابعاً : حياءُ الكرم :

وذروة هـذا الحيـاء تتمثـل فـي شخـص حبيبنـا ونبينـا محمد ﷺ ، وذلك كحيائه ﷺ من القومِ الذين دعاهم إلىٰ وليمة زوجته أم المؤمنين زينب رضي الله عنها ـ وهم ثلاثةُ رجالٍ ـ وطوّلوا الجلوس عنده بعد أنْ أكلوا الطّعام ، وجعلوا يتحدثون في البيت ، فقامَ ﷺ واستحيا أنْ يقول لهم : انصرفوا .

خامساً : حياءُ الحشمةِ :

وحشم تعني : خجل ، واحتشم إذا اتّصف بالحياء ، ومثالُ حياءِ الحشمة حياءُ علي بن أبي طالب رضي الله عنه من رسول اللهِ ﷺ ، إذ احتشم أنْ يسأله عنْ أشياء لمكان ابنته فاطمة منه .

سادساً : حياءُ الاستحقار واستصغار النفسِ :

وهذا النّوعُ منَ الحياءِ ينتابُ العبد حينما يسألُ ربّه عن حوائجه ، حيث يحتقرُ شأنَ نفسه ، ويستصغرها ، وهذا الحياءُ منبعثٌ عن استحقار السّائل نفسه ، واستعظام ذنوبه وخطاياه ، وما بدر منه ، ويمكن أن يكونَ هذا الحياءُ منبعثاً عن استعظام المسؤول ، واستحضاره في النّفس ، وهو اللهُ عَزَّ وجَلَّ .

سابعاً : حياءُ المحبةِ :

وهذا الحياءُ منْ أرق الأنواع العشرة ، وهو حياءُ المحب من محبوبهِ ، بحيث إن خطرَ علىٰ قلبه في غيبته هاجَ الحياءُ منْ

قلبه ، ومن ثُمَّ أحسّ به في وجهه ، ولا يدري ما سببه .

ـ ولعلَّ سببَ هذا الحياء هو المفاجأة ، وسببهُ لا يعرفُهُ أكثرُ الناسِ ، ولا ريبَ أنَّ للمحبةِ سلطاناً قاهراً للقلبِ أعظمُ من سلطانِ مَنْ يقهر البدن .

ثامناً : حياءُ العبودية :

من الممتعِ في هذا الحياءِ أنَّه ممتزج من نقيضين ، ومتولّدٌ من متضادين ، فحياء العبودية ممتزجٌ من محبةٍ وخوف ، ومشاهدة عدم صلاح عبودية العبد لربهِ عَزَّ وجَلَّ ، إذ إنَّ قدره أعلىٰ وأجلَّ وأعظم منها ، لذلك فإنَّ عبوديته له توجبُ استحياءه منه لا محالة .

تاسعاً : حياءُ الشرفِ والعزةِ :

يبدو للوهلة الأولىٰ أنَّ نوعَ هذا الحياء فيه شيءٌ منَ التناقض ، واعترتنا لذلك الدهشة ، ولكن إذا أمعنا الفِكر في معناه زالتِ الدهشة ، حيث إنَّ حياءَ النّفس الكبيرة إذا صدر

منها ما هو دون قدرها وشرفها من بذلٍ أو عطاء أو إحسان أو تفضُّل ، فإنَّ المرءَ إذ ذاك يستحيي مع بذله وعطائه حياءً يسمىٰ : حياء شرف وعزّة ، لأنَّه تعوّد علىٰ ما هو أفضلُ وأجودُ في العطاء ، وبالتالي يكونُ حياؤه من الذي يعطيه ، حتى لكأنَّه هو الآخذُ وهو السّائل ، ولعلَّ هذا يدخلُ في حياءِ التلوم ، لأنه يستحيي من خجلةِ الآخذ .

عاشراً : حياء المرء المستحيىٰ من نفسه :

وهذا الحياءُ يقتربُ منْ مراتبِ الكمال ، فهو حياء النّفوس الشريفة الغريزة من رضاها لنفسها بالنقص ، وقناعتها بالدّون ، فيجد نفسه مستحياً من نفسه ، حتىٰ كأن له نَفْسَيْن ، يستحيي بإحداهما منَ الأخرى ، وهذا أكمل ما يكون منَ الحياء ، فإنَّ المرءَ إذا استحيا من نفسه ، فهو أجدر أن يستحيي من غيره[1] .

---

(١) انظر : مدارج السّالكين لابن قيم الجوزية (٢/ ٢٦١ـ٢٦٣) بشيء من التصرف ، وقد زدْنا في إيضاح بعض الأنواع =

ـ أمّا أبو الحسن الماوردي ـ رحمه الله ـ فللحياء عنده طعمٌ خاص ، وأنواعٌ جميلةٌ ، فالماوردي ممنْ عُرف بسعةِ أفقه ، وغزارة علمه ، وتعمّقه في مسائل الفقه ، وكذلك تبحره في الأدب ، وكانَ من أهل الحياء[1] ، فكيف تحدّثَ الماوردي عن أنواع وأقسام الحياء ؟!

= العشرة لتعمَّ الفائدة بإذن الله .

(١) في مقالة طيبة للشيخ محمد أبو زهرة ـ رحمه الله ـ يلخصُ صفاتِ أبي الحسن الماوردي بخمس صفات ؛ جعل رابعتها الحياء ، فقال ما مفاده :

اتّصفَ أبو الحسن الماوردي بصفاتٍ جعلته الذروة بين رجال العلم عبر التاريخ الإسلامي ؛

وأولى هذه الصفات : ذاكرة واعية ، وبديهة حاضرة ، وعقل مستقيم .

وثانيها : اتزان في القول والعلم .

وثالثها : الحلم وضبط النفس .

والرابعة : التواضع وإبعاد النفس عن الغرور ، وكان حييّاً شديدَ الحياء ، وفيه وقارٌ وهيبة .

والخامسة : الإخلاص .

ـ لاشكّ بأنَّ حديثَه عنْ أنواعِ الحياء له طعم خاص ، وأسلوبٌ رائعٌ موشّحٌ بعطرِ هذا الأدب العظيم ، وهذا السّربال المبارك الميمون .

ـ فلنعش لحظات ممتعة مع الحياء وأنواعه عند أبي الحسن الماوردي ، حيث لخصها في ثلاثة أنواع فقال : اعلم أنَّ الحياء في الإنسانِ قد يكون من ثلاثة أوجه :

أحدها : حياؤه منَ اللهِ تعالىٰ .

والثاني : حياؤه منَ الناسِ .

والثالث : حياؤه من نفسه .

ـ والآن دعونا ندخل معاني الحياء عند الماوردي ، وكيف فصّلها ، وما جاء به من أدلة وشواهدَ وحكايات ، ونحن ذاكرون ما تسعفنا به الذاكرة من فوائد ـ أيضاً ـ تتصل بالحياءِ نضيفها إلىٰ حديث الماوردي .

النوعُ الأولُ : حياءُ الإنسان من الله تعالىٰ :

ـ يكونُ الحياءُ منَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ بامتثالِ الإنسان أوامره ، وطاعته فيما أمرَ به ، والكفّ عن زواجره ، واجتناب معاصيه .

ـ روىٰ ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أنَّ النبي ﷺ قال : « استحيوا منَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ حقّ الحياء » .

فقيل : يا رسول الله ، فكيف نستحيي منَ اللهِ حقّ الحياء ؟

قال : « من حفظَ الرأسَ وما حوىٰ ، والبطنَ وما وعىٰ ، وتركَ زينةَ الحياةِ الدُّنيا ، وذكرَ الموتَ والبلىٰ ، فقد استحيا منَ اللهِ حقّ الحياء »[1] ، وهذا الحديث منْ أبلغِ الوصايا في

---

(١) رواه أحمد (١/٤٠٨) ، وأخرجه الترمذي في صفة القيامة برقم (٢٤٥٨) ؛ وقالتِ العلماء : الصوابُ أنَّ هذا الحديثَ موقوفٌ عن ابنِ مسعودَ ، هذا ولم يُشِرْ محقق كتاب أدب =

سلوكِ طريق الحياء وسبيل الاستحياء .

ـ وفي ثنايا هذا النّوع يروي أبو الحسن الماوردي قصة حُلُمٍ رأىٰ فيه النبي ﷺ ، وكيف أوصاه بالحياء ، فلنعِشْ أحلامَ حلم الماوردي ، ولنستمع إليه وهو يروي لنا منامه فيقول : رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ في المنام ذات ليلة ، فقلت : يارسولَ اللهِ ، أوصني .

فقال : استحي من اللهِ عَزَّ وجَلَّ حقَّ الحياءِ .

ثم قال : تغيّر النّاس .

قلتُ : وكيفَ ذلك يا رسولَ الله ؟!

قال : كنتُ أنظرُ إلىٰ الصّبي ، فأرىٰ في وجههِ البشر والحياء ، وأنا أنظر إليه اليومَ ، فلا أرىٰ ذلك في وجهه .

ـ ثم تكلّم بعد ذلك بوصايا وعِظات تصوّرتها ، وأذهلني السُّرور عن حفظها ، وودتُ أنّي لو حفظتها ؛ فلم يبدأ بشيء ﷺ قبل الوصية بالحياء من الله تعالىٰ ، وجعل ما سُلِبه

= الدنيا والدين إلىٰ تخريج هذه الأحاديث .

الصبيُّ من البِشْرِ والحياء سبباً لتغيّر الناس ، وخصّ الصّبي ، لأنَّ ما يأتيه بالطّبع من غيرِ تكلّف ، فصلّىٰ اللهُ عليه وسلم علىٰ مَنْ هدىٰ أمته ، وتابعَ إنذارها ، وقطع أعذارها ، وواصل تـأديبهـا ، وحفـظ تهـذيبهـا ، وجعـل لكـل عصـرٍ حظـاً مـن زواجره ، ونصيباً من أوامره ، أعانَ اللهُ علىٰ قبولها بالعمل ، وعلىٰ استدامتها بالتوفيق .

ـ ويتابع الماوردي هذه الفقرة فيقول : ورُوي أنَّ النبي ﷺ وصّىٰ رجلاً بالحياءِ فقال له : « استحي من الله استحياءك من رجلين من صالحي عشيرتك لا يفارقانك » . وهذا النوعُ من الحياءِ يكون من قوةِ الدِّين ، وصحةِ اليقين ، ولذلك قال النبي ﷺ : « قلة الحياء كفر » يعني منَ اللهِ تعالىٰ ، لما فيه من مخالفةِ أوامرِه ، وقال ﷺ : « الحياءُ نظامُ الإيمان ، فإذا انحلّ نظام الشيء ، تبدد ما فيه وتفرّق »[1] .

---

(١) أدب الدنيا والدين (ص ٣٩٤) .

النوعُ الثاني : حياءُ الإنسان من الناس :

ـ يرىٰ الماوردي ـ رحمه الله ـ أنَّ الحياءَ منَ الناسِ يكونُ بكفِّ الأذىٰ ، وبتركِ المجاهرة بالقبيح ، لأنّ من تقوىٰ اللهِ اتقاء النّاس .

ـ روي أنَّ حذيفة بنَ اليمانِ العبسي ـ رضي الله عنهما ـ أتىٰ الجمعة ، فوجدَ النّاس قد انصرفوا ، فتنكّبَ الطريق عن النّاس ، وقال : لا خيرَ فيمن لا يستحيي منَ الناس .

ـ وقال بشار بن برد في هذا المجال :

ولقد أصرفُ الفؤاد عن الشي ء حيـاءً وحبُّـه فـي السّـواد
أمسكُ النّفس بالعفاف وأمسي ذاكراً في غدٍ حديثَ الأعادي[1]

ـ ويتابعُ الماورديُّ حديثه عن الحياء من الناس ، ويعده من تمام المروءة فيقول : وهذا النوعُ من الحياءِ قد يكون من

---

(١) ديوان بشار بن برد (٢/ ١٧٨) .

كمال المروءة وحبِّ الثّناء ، ولذلك قال ﷺ : « من ألقىٰ جلبابَ الحياءِ فلا غيبة له » يعني : لقلّة مروءته ، وظهور شهوته .

ـ وروىٰ الحسن عنْ أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال ﷺ : « إنَّ من مروءة الرجلِ ممشاه ، ومدخله ، ومخرجه ، ومجلسه ، وإلفه ، وجليسه » .

ـ وقال بعض بلغاء الشُّعراء في هذا المجال :

وربَّ قبيحةٍ ما حالَ بيني ... وبين ركوبها إلا الحياءُ
إذا رُزِقَ الفتىٰ وجهاً وقاحاً ... تقلّب في الأمورِ كما يشاءُ
ولم يكُ للدواءِ ولا لشيءٍ ... يعالجه به فيه غناءُ
فما لكَ في معاتبة الذي لا ... حياءَ لوجهه إلا العناءُ

ـ وقال آخر :

إذا لم تَصُنْ عرضاً ولم تخشَ خالقاً ... وتستحي مخلوقاً فما شئتَ فاصنع

النوعُ الثالثُ : حياءُ الإنسان من نفسه :

ـ هذا الحياء نابعٌ من مراقبةِ الإنسان لنفسه ، ويكونُ ذلك بالعفة ، وصيانة الخلوات ؛ قال بعض الحكماء : ليكن استحياؤك من نفسِك أكثر من استحيائك من غيرك .

ـ وقال بعضُ الأدباء : مَنْ عمل في السِّر عملاً يستحي منه في العلانية ، فليس لنفسه عنده قدرٌ .

ـ ويرىٰ الماوردي أنَّ الرجلَ إذا بلغَ أربعين سنة فعليه ارتداءُ ثوبِ الحياء ؛ ويضربُ مثالاً على ذلك فيقول : دعا قومٌ رجلاً كان يألفُ عشرتهم ، فلم يجبهم وقال : إني دخلتُ البارحةَ في الأربعين ، وأنا أستحيي من سني .

ـ وقال بعضُ الشعراء في استواءِ سريرته وعلانيته :

فسرّي كإعلاني وتلك خليقتي وظلمةُ ليلي مثلُ ضوءِ نهاريا

ـ وهذا النّوع منَ الحياءِ ، قد يكونُ من فضيلة النّفس ، وحسن السّريرة ، فمتىٰ كَمُلَ حياءُ الإنسان من وجوهه

الثلاثة : منَ اللهِ ، ومنَ النّاس ، ومنْ نفسه ؛ فقد كَمُلت فيه أسبابُ الخير ، وانتفتْ عنه أسبابُ الشرِّ ، وصار بالفضل مشهوراً ، وبالجميل مذكوراً[1] .

ـ هذه أنواعُ الحياءِ عند الماوردي ، وقد لاحظنا كيف أسبغَ الماوردي روحه علىٰ هذه الأنواع فجاءت جميلةً ، أحاطتْ بما يهمُّ المرءَ في دينهِ ودنياهُ في الحياء .

ـ إنَّ الإنسان إذا أخلَّ بأحدِ وجوه الحياء السابقة ، لحقه من النّقص بإخلاله ، بقَدْر ما كانَ يلحقه من الفضل بكماله .

ـ روي أنَّ أبا بكرٍ الصديق[2] ـ رضوان اللهِ عليه ـ كانَ يتمثل بهذا الشِّعر :

---

(١) انظر : أدب الدنيا والدين (ص ٣٩٢ـ٣٩٥) بشيء من التصرف .

(٢) من الجدير بالذكر أنَّ أبا بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ لم يقل الشعر أبداً ، كما أخبرت بذلك أمنا عائشة ابنته رضي الله عنها .

وحاجةٍ دون أخرىٰ قد سنحت لها جعلتهـا للتـي أخفيـتَ عنـوانـا

وإنني لأرىٰ مَنْ لا حياء له ولا أمانة وسط القومِ عُريانا

* * *